وحدث البلاذرى فى كلامه على ما أنكروا من سيرة عثمان أحاديث كثيرة أسندها إلى أصحابها .

منها : وكتب لمروان بن الحكم بخمس إفريقية وأعطى أقاربه المال وتأول فى ذلك الصلة التى أمر الله بها واتخذ الأموال واقترض من بيت المال مالاً وقال : إن أبا بكر وعمر تركا من هذا المال ما كان لهما وإنى آخذه فأصل به رحمى ، فأنكر الناس ذلك عليه .

ومنها : أن عثمان كان يأخذ من الخيل الزكاة ، فأنكر ذلك من فعله وقالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق .

ومنها : كان عبد الله بن سعد بن أبى سرح أخا عثمان من الرضاعة وعامله على المغرب ، فغزا إفريقية سنة سبع وعشرين فافتتحها ، وكان معه مروان بن الحكم ، فابتاع خمس الغنيمة بمائة ألف أو مائتى ألف دينار ، فكلم عثمان فوهبها له ، فأنكر الناس ذلك على عثمان .

ومنها : لما بنى مروان داره بالمدينة دعا الناس إلى طعامه ، وكان المِسْوَر فيمن دعا ، فقال مروان وهو يحدثهم : والله ما أنفقت فى دارى هذه من مال المسلمين درهماً فما فوقه ، فقال المسور : لو

أكلت طعامك وسكت لكان خيراً لك ، لقد غزوت معنا إفريقية وإنك لأقلنا مالاً ورقيقاً وأعواناً وأخفنا ثقلاً ، فأعطاك ابن عفان خمس إفريقية ، وعملت على الصدقات ، فأخذت أموال المسلمين .

ومنها : كان مما أنكروا على عثمان أنه ولى الحكم بن أبى العاص صدقات قضاعة فبلغت ثلاثمائة ألف درهم ، فوهبها له حين أتاه بها .

ومنها : لما قدم الوليد بن العقبة الكوفة ألفى ابن مسعود على بيت المال فاستقرضه مالاً ، وقد كانت الولاة تفعل ذلك ، ثم ترد ما تأخذ ، فأقرضه عبد الله بن مسعود ما سأله ، ثم إنه اقتضاه إياه ، فكتب الوليد فى ذلك إلى عثمان ، فكتب عثمان إلى عبد الله بن مسعود : إنما أنت خازن لنا ، فلا تعرض للوليد فيما أخذ من المال ، فطرح ابن مسعود المفاتيح وقال : كنت أظن أنى خازن للمسلمين ، فأما إذ كنت خازناً لكم فلا حاجة لى فى ذلك ، وأقام بالكوفة بعد إلقائه مفاتيح بيت المال .

ومنها : أنكر على عثمان مع ما أنكر أن حمى الحمى ، وأن أعطى زيد بن ثابت مائة ألف درهم ، من ألف ألف درهم حملها أبو موسى الأشعرى ، وقال له : هذا حقك !

ومنها: كان فى بيت المـال بالمدينة سفط فيه حلى وجوهر ، فأخذ منه عثمان ماحلّى به بعض أهله ، فأظهر الناس الطعن عليه فى ذلك ، وكلموه بكلام شديد حتى أغضبوه .

ولما ورد المصريون المدينة وأحاطوا هم وغيرهم بدار عثمان ، أشرف عليهم عثمان فقال : أيها الناس ! ما الذى نقمتم علىّ ، فإنى معتبكم ونازل عند محبتكم ، فجعلوا يذكرون له أمراً أمراً مما أنكروا عليه ، فكان يرد على كل أمر ، فلما ذكروا له مال الله الذى أعطاه قرابته قال : اكتبوا به علىّ للمسلمين صكا لأعجل منه ماقدرت على تعجيله وأسعى فى باقيه .

من هذا يتبين لنا إقراره باعطائه قرابته المال ، فقد رد على كل أمر ، ماخلا أمر المـال فإنه اعترف به .

ومما فتح العيون عليه أن الناس فى عصر عمر بن الخطاب كانوا على كثير من خشونة الحياة اقتداء بخليفتهم ، أما عثمان بن عفان فقد مال إلى النعيم ، فبنى داره فى المدينة وشيدها بالحجر والكلس ، وجعل أبوابها من الساج والعرعر ، واقتنى أموالا وجناناً وعيوناً بالمدينة ، وخلف خيلاً كثيراً وإبلا ، وكان عند خازنه من المال يوم قتل خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم

وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار .

وقد سلك عماله وكثيرمن أهل عصره طريقته ،وتأسوا به فى فعله ، فاقتنى جماعة من أصحابه الضياع والدور ، منهم الزبير بن العوام فقد بنى داره بالبصرة وابتنى أيضاً دوراً بمصر والكوفة والإسكندرية ، وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وخلف ألف فرس وألف أمة وخططا بالأمصار المذكورة .

ومنهم طلحة بن عبيد الله التيمى ، فقد ابتنى داره بالكوفة وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك، وبناحية سراة أكثر مما ذكر ، وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج .

ومنهم عبد الرحمن بن عوف الزهرى ،فقد ابتنى داره ووسعها وكان على مربطه مائة فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألفاً .

ومنهم سعد بن أبى وقاص ،فقد بنى داره بالعقيق ورفع سمكها ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات .

وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس ، غير ما خلف

من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار .

وابتنى المقداد داره فى الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة ، وجعل أعلاها شرفات، وجعلها مجصصة الظاهر والباطن.

ومات يعلى بن أمية وخلف خمسمائة ألف دينار وديونا على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة ما قيمته مائة ألف دينار .

وختم المسعودى هذا الفصل بما يلى : وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملك من الأموال فى أيام عثمان، ولم يكن مثل ذلك فى عصر عمر بن الخطاب ، بل كانت جادة واضحة ، وطريقة بينة .

ولقد ذكرت أسماء جماعة من أصحاب عثمان الذين اقتنوا الضياع والدور ، وما أظن أن القارئ تهمه هذه الأسماء ، ولكنه إذا أراد أن يعرف تأثير هذا الاقتناء فى أهل العصر الذى عاش فيه عثمان وجب عليه أن يضع نفسه موضع أحد أهل ذلك العصر ، كيف تكون حاله إذا كان فى زمن رأى فيه رجال حكومته وأصحابهم وذويهم يقتنون الضياع ويبنون القصور ويكنزون الأموال ، ومعظم أهل الزمن يعيشون فى ضيق ! إذا وضع القارئ نفسه هـذا الموضع هان عليه حينئذ فهم أسرار النقمة

على عثمان ، فإن فهمنا للماضى يزداد بقياسه إلى الحاضر ، فأكثر مشاكل الماضى مشابهة لمشاكل الحاضر .

أجل ، لا يهمنا من غنى العمال الذين ذكرتهم شىء ، فسواء علينا فقرهم وغناهم ، ونعيمهم وخشونتهم ، وإنما ننظر إلى هذا الغنى والتوسع فى النفقة والبذخ من ناحية تأثيره النفسى فى الأمة ، فالناس يسوء عادة ظنهم برجال الحكومة الذين هم على هذه الأخلاق ، ويبسطون الألسن فيهم فى الحق والباطل ، ولا سيما إذا كانت الأمة فى شىء من ضنك الحياة فإن نقمتها على رجال الحكومة فى مثل هذه الحال أشد ، وحقدها عليهم أعظم ، وقد يضعف المنطق فى شبه هذه الأحوال ، فتكثر التهم ، ويقل التمحيص ، ويشتد الغلو ، ولكن فى هذا كله أمراً واقعاً وهو مظاهر البذخ والإسراف والتبذير ، وهذه المظاهر هى التى تؤثر فى عيون الناس وقلوبهم ، وتولد فى نفوسهم النقمة والحقد ، وتحملهم على الوثوب برجال الحكومات والثورة عليهم .

إنى أعتقد أن فى بذخ جماعة عثمان واقتنائهم الضياع والدور عاملا من أقوى عوامل النقمة عليه ، ولقد ذهب المؤرخون فى مقتله كل مذهب ، فمنهم من رأى أن السياسة التى جرى عليها

فى استعمال أقاربه وأهل بيته كانت السبب فى خاتمته الأليمة، ومنهم من رأى أن هذا المقتل حرّض عليه جماعة يطمعون فى الخلافة، وكيف كان الأمر فقد كانت سياسته المالية باباً للفتنة ولولاها لما استطاعوا فتح هذا الباب، أو كانوا يستطيعون فتحه من ناحية ثانية يفتشون عنها، وعلى كل حال فقد كانت هذه السياسة غلطة نفسية، فأنا إذا تكلمت عليها فإنى أتكلم عليها من ناحية هذه الغلطة لا غير، فما هى نتيجة سياسة من هذا الطرز إنها نتيجة أليمة، محزنة، ولكنها بنت الطبيعة، لقد قتل سيدنا عثمان بأساليب لم يكن فيها شىء من الإنسانية، فلا شفقة ولا رحمة، لم تشفع له صحبة مع النبى، ولا شفع له تكريم النبى إياه، ولا طعنه فى السن، ولا فرط تقواه، ولا شيخوخته الصالحة، ولا مصحفه بين ركبتيه، فالناس إذا ثاروا على أمر من الأمور نظروا إلى مساوئ هذا الأمر، فلا يروعهم عن شدتهم شىء من الدين والشفقة والرحمة.

***

ولقد جاء بعد سيدنا عثمان خلفاء من بنى أمية أدركوا تأثير المال فى الرعية، وفهموا أسرار سياسته، فكان فهمهم سر نجاحهم

منهم هشام بن عبد الملك ، وسأفرد له باباً خاصاً أختم به هذا الكتاب ، ومنهم يزيد بن الوليد ، فقد كان يزيد عالماً بروح الرعية في هذه السبيل ، فإنه لما قتل ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك قام خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه وذكر الأسباب التي من أجلها خرج على ابن عمه ثم قال :

« أيها الناس إن لكم عليّ أن لا أضع حجراً على حجر ، ولا لبنة على لبنة ، ولا أكرى نهراً ولا أكنز مالا ولا أعطيه زوجاً ولا ولداً ولا أنقل مالاً من بلد إلى بلد حتى أسد فقر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يغنيهم ، فإن فضل فضلٌ نقلته إلى البلد الذي يليه مما هو أحوج إليه منه » .

جوهر هذا الكلام الواضح معرفة أصحابه بما يستثير جماهير الناس ، والدخول على هذه الجماهير من الباب الذي يرضيها ، فقد كان يزيد بن الوليد يعلم أن الناس ناقمون على تباهي من قبله بقصورهم ، وعلى كنزهم المال وإعطائه الزوج والولد ، وكان يسمع أحاديثهم في هذه الموضوعات ، لأن حواس الأمة بمجامعها يقظة متنبهة في مثل هذه الحال ، فانتفع يزيد بهذه النقمة ، وخرج على ابن عمه ، وتولى الأمر بسياسة مناقضة لسياسة من قبله ، فقد علم

أن لا شيء يغضب الجماعات مثل كنز رجال الحكومة للمال وإعطائه الزوج والولد والأهل والأصحاب ، ولا شيء يخوضون في ذكرهم في مجالسهم الخاصة والعامة مثل نهب الحكومات للمال ، فإن سياسة من هذا الشكل تقضي على الحكومة وعلى الشعب في وقت واحد ، فالحكومة التي يكون همها الأكبر سلب المال تتفتح عليها العيون ، فلا تنجو من انبساط الألسن فيها ، وقد تجر سياسة من هذا النوع إلى شيء أفظع من انطلاق الألسن .

شعر يزيد بن الوليد بهذا الأمر الدقيق فأخذ على نفسه في خطبته العهود والمواثيق أن لا يقع فيه ، ولو دققنا في آخر جملة من كلامه لانكشفت لنا معرفته ببواطن الجماعات الانكشاف كله ، فإن قوله : ولا أنقل مالا من بلد إلى بلد حتى أسد فقر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يغنيهم ، فإن فضلَ فضلٌ نقلته إلى البلد الذي يليه ممن هو أحوج إليه ، منه دليل واضح على تغلغله إلى أعماق النفوس ، فإن نقمة الجماهير على رجال الحكومة تظهر في خلال نقل هؤلاء مال بلدهم إلى بلد آخر وهم في حاجة اليه ، والمال في هذا المقام يحتوي على كل ما ملكه الإنسان من كل

شىء ، فقد عرف يزيد بن الوليد مواطن الغضب والرضا فى نفوس الأمة ، فدخل على هذه النفوس من مواطن الرضا وتجنب مواطن الغضب ، وهذا روح السياسة .

هذه شواهد يسيرة على علم بعض خلفاء المسلمين بما يغضب الأمة ويرضيها فى سياسة المال ، وإفاضة هؤلاء الخلفاء فى كلام مثل الكلام الذى تقدم برهان على معرفتهم بالمواضع الهائجة المائجة فى أعصاب الناس .

# هشام بن عبد الملك

رأينا فى الفصل المتقدم كيف كانت عواقب سياسة الذين أسرفوا فى النفقات وبددوا بيت مال المسلمين ، والبخل فى السياسة عواقبه قريبة من عواقب التبذير ، ومن الخلفاء طائفة سلكت مسلكا وسطاً ، وعلى رأسهم هشام بن عبد الملك ، فحمدوا عواقب سياستهم الرشيدة المتصلة بروح الجماهير .

ذكر فريق من المؤرخين أشياء كثيرة عن أخلاق هشام بن عبد الملك ، فقد أشار ابن قتيبة إلى محاسنه ، فلم يغفل عن عظم قدره وانقياد البلاد إلى سلطانه ، وقربه من الضعفاء واهتمامه بالإصلاح وتهيّب الناس له ، ورده للمظالم وأخذه على يد الظالم ، وإدنائه للضعفاء والنساء واليتامى ، وإقصائه لأهل القوة ، وحتى لربما أتت عليه تارات من الليل وساعات من النهار لا ينظر فى شىء ولا يأتيه أحد فى خصومة لاستغناء الناس عن المطالب والتخوف من سطواته وعقوباته ، فقد وسع البلاد أمنه وأشعرهم عدله ،

وصارت البلاد المتنائية الشاسعة كدار واحدة ترجع إلى حاكم يرقبه الناس فى المواضع النائية عنه كما يرقبه من معه ، وقد تمكن بفضل جواسيسه من معرفة أحوال ولاته وأعمالهم وأعمال الأخيار والأشرار ، بحيث لا يكون خبر ولاتحدث قصة من مشرق الأرض ولا مغربها إلا وينظر فيها هشام ، فكانت أيامه عند الناس أحمد أيام مرت بهم وأعفاها وأرجاها .

كان المنصور فى أكثر أموره وتدبيره وسياسته متبعاً لهشام فى أفعاله ، لكثرة كشفه عن أخبار هشام وسيره، وكان يقول : رجل بنى أمية هشام .

أرانى قد أطلت فى تلخيص أمور عن هشام تكاد تكون خارجة عن موضوعى ، فأنا لا أتعرض فى هذا الفصل إلا لسياسة المال وحدها ، ولكنى لخصت ما لخصت حتى يعرف القارىء هذا التناسق العجيب فى نواحى سياسة هشام ، ولا أقول إن اتقانه لسياسة المال هو الذى جرَّ إلى إتقانه لكل أمور السياسة، ولكنى أقول إن هذا الرجل العظيم كانت سياسته حسنة الانسجام فى جميع أشكالها ، ومن هذه الأشكال سياسة المال . ولا ريب فى أن خليفة تدوم خلافته عشرين سنة على الصفات التى أشار

إليها ابن قتيبة وغيره من رجال التأريخ لجدير بالبحث عن جوهر سياسته وسر نجاحها ، ولكن المرء يحار فى هذا الجوهر وهذا السر ، إلى أى شىء يرد عوامل النجاح . ولعل فى القصة التى أنقلها عن العقد الفريد توضيحاً لأسباب نجاح سياسة هشام فى قضايا المال ، وهو الموضوع الذى أحبس عليه البحث فى هذا الفصل .

***

وفد عليه أهل الحجاز وكان شباب الكتّاب إذا قدم الوفد حضروا لاستماع بلاغة خطبائهم ، فتكلم محمد بن أبى الجهم بن حذيفة العدوى ، وكان أعظم القوم قدراً وأكبرهم سناً فقال : أصلح الله أمير المؤمنين ، إن خطباء قريش قد قالت فيك ما قالت وأكثرت وأطنبت ، والله ما بلغ قائلهم قدرك ، ولا أحصى خطيبهم فضلك ، وإن أذنت فى القول قلت ، قال : قل وأوجز ، قال : تولاك الله يا أمير المؤمنين بالحسنى ، وزينك بالتقوى ، وجمع لك خير الآخرة والأولى ، إن لى حوائج أفأذكرها ؟ قال : هاتها قال : كبر سنى ، ونال الدهر منى ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجبر كسرى وينفى فقرى فعل ، قال : وما الذى ينفى فقرك ويجبر

كسرك ؟ قال : ألف دينار وألف دينار وألف دينار ، قال : فأطرق هشام طويلا ثم قال : يا ابن أبي الجهم ، بيت المال لا يحتمل ما ذكرت ، ثم قال له : هيه ، قال : ما هيه ! أما والله إن الأمر لو إلى أحد ! ولكن الله آثرك لمجلسك ، فإن تعطنا فحقنا أديت وإن تمنعنا فنسأل الذي بيده ما حويت يا أمير المؤمنين ! إن الله جعل العطاء محبة والمنع مبغضة ، والله لأن أحبك أحب إلىّ من أن أبغضك ، قال : فألف دينار لماذا ؟ قال : أقضى بها ديناً فدحني قضاؤه وقد عنانى حمله وأضر بى أهله ، قال : فلا بأس ، تنفس كربة وتؤدى أمانة ، وألف دينار لماذا ؟ قال : أزوج بها من بلغ من ولدى ، قال : نعم المسلك سلكت ، أغضضت بصراً وأعففت ذكراً ورفعت نسلا ، وألف دينار لماذا ؟ قال : أشترى بها أرضاً يعيش بها ولدى وأستعين بفضلها على نوائب دهرى ، وتكون ذخراً لمن بقى ، قال : فإنا قد أمرنا لك بما سألت ، قال : فالمحمود الله على ذلك وخرج ، فأتبعه هشام بصره وقال : إذا كان القرشى فليكن مثل هذا ، ما رأيت رجلا أوجز فى مقال ولا أبلغ فى بيان منه ، ثم قال : أما والله ؛ إنا لنعرف الحق إذا نزل وننكره الإسراف والبخل، وما نعطى تبذيراً ولا نمنع تقتيراً ،

وما نحن إلا خزان الله فى بلاده ، وأمناؤه على عباده ، فإذا أذن أعطينا ، وإذا منع أبينا ،ولو كان كل قائل يصدق ، وكل سائل يستحق، ما جبهنا قائلا ،ولا رددنا سائلا ، ونسأل الذى بيده ما استحفظنا أن يجريه على أيدينا ؛ فإنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بعباده خبير بصير .

إذا تدبرنا هـذه القصة استطعنا أن ندرك سياسة هشام بن عبد الملك فى تدبير المـال . يدلنا الشق الأول منها على أنه يمنع ثم يعطى ، ولـكنه لايعطى إلا إذا رأى سبيلا إلى العطاء ، لقد منع عن ابن أبى الجهم المال . ولـكنه لما تبين له أن هذا المال سيصرف فى وجهه عاد إلى العطاء ، ويدلنا الشق الأخير من القصة على توضيح هشام بن عبد الملك لسياسته فى تدبير المـال ، إنه يكره الإسراف والبخل ، فلا يعطى تبذيراً ولا يمنع تقتيراً ، وهذه العبارة علي اختصارها تتضمن أبلغ إشارة إلى طرق إنفاقه للمال ، إنه يكره الإسراف ، ففى تاريخ العرب أمور كثيرة تدل على أن طائفة من العمال والخلفاء أخفقت سياستهم لأنهم أسرفوا فى مال المسلمين ، وإنه يكره البخل ، ففى هذا التاريخ نفسه أمور غير قليلة تبين لنا أن بعض العمال والخلفاء لم تنجح سياستهم

لفرط بخلهم ، وحسبي الإشارة إلى عثمان بن عفان وعبد الله بن الزبير، فالأول قد فصلت سياسته المال، فرأينا كيف كانت عواقب هذه السياسة ، والثانى لم تنجح سياسته لأسباب كثيرة ، من جملتها بخله الشديد ، يكره العرب البخل والإسراف من قبل العمال والأمراء والخلفاء ، فالعاقل من كان بصيراً بمعرفة فى سياسة العرب ؛ وهشام بن عبد الملك كان نصيبه من هذه المعرفة النفسية غير قليل ، وضع مال المسلمين فى مواضعه ، كان يمنع فى وقت المنع ، ويعطى فى زمن العطاء ، فيحفظ بهذه السياسة الحكيمة بيت مال المسلمين ، لم يبخل ولم يبذر ، ولهذه العلة ، ولعلل أخرى كان الناس معه فى دعة وسكون وراحة ، إنا نعرف كيف ينقم الشعب على حكومة تبذر أمواله وتصرفها فى غير وجوهها ، ونعرف كيف ينقم على حكومة تخزن الأموال ولا تصرفها فى سبيل شىء من الإصلاح ، فهشام بن عبد الملك فطر على محاسن كثيرة ، فى رأسها معرفته بتأثير المال فى النفوس، وإتقانه لسياسة المال فى الرعية ، فأحسن القيام عليه ، فأرضى بهذا الإحسان الرعية عامة ، ولم يظفر بهذا الرضا إلا لاهتدائه إلى أسرار السياسة النفسية .

## خاتمة القول

هذا آخر ما أحببت الإشارة إليه فى كلامى على العناصر النفسية فى سياسة العرب ، ولم أستقص فى تأريخ العرب عامة ، وإنما استخرجت نماذج السياسات النفسية التى ذكرتها فى هذا الكتاب من تأريخ الخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أمية وعمالهم ، ولو اتسع المجال لاستنباط نماذج ثانية من تأريخ بنى العباس لفعلت ، على أن هذا القليل الذى أثبته قد دلنا الدلالة الواضحة على أن كثيراً من عمال العرب وأمرائهم وخلفائهم قرنوا سياستهم بعلم النفس ، فالسياسة وعلم النفس متلازمان ، وكل سياسة منحرفة عن علم النفس إنما هى سياسة فاسدة . ولقد أحس بعض كتاب العرب المتقدمين بهذا الأمر فوضعوا الكتب فى هذا الباب ، وقد طالعت كتاباً صغيراً اسمه : سلوك المالك فى تدبير الممالك ، لصاحبه شهاب الدين بن أبى ربيع ، ألفه للخليفة المعتصم .

بنى ابن أبى ربيع كتابه على أربعة فصول : فصل فى المقدمة وثلاثة فصول فى أحكام الأخلاق وأقسامها وفى أصناف السيرة العقلية وانتظامها وفى أقسام السياسات وأحكامها.

عنوان الكتاب يدل على موضوعاته ، فهو عبارة عن جملة قواعد وضعت للذين يسوسون أمور الناس .

من هذه القواعد مايلى : سأل الاسكندر حكيما : من يصلح للملك؟ فقال له : إما ملك حكيم ! أو ملك ملتمس للحكمة،والحكمة فى هذا المقام معناها الفلسفة .

ومن جملتها : وعلى الملك أن يعرف أكثر أخلاق رعيته ليؤهل كلاً لما يصلح له من الولايات .

إلا أن التربة الخصبة التى نبت فيها هذا الرأى، قرن السياسة بعلم النفس إنما هى تربة المدينة الفاضلة لأفلطون ، وإذا كانت دساتير الأمم فى عصرنا قد اختلفت عن دساتير المتقدمين ، فأصبح للأمم مجالس نواب ومجالس شيوخ وغير ذلك فإن شيئاً واحداً

لم يتغير ، وهو بناء السياسة على علم النفس ، فالسياسة الحكيمة هى التى تتصل بمعرفة النفوس والأخلاق .

ومن كتّاب هذا العصر « موروا » وله كتاب اسمه : فن الحياة ، أو أحد فنون الحياة، من فصول هذا الكتاب : فصل فن الحكم ، فقد تكلم فيه المؤلف على أخلاق الرؤساء الذين يسوسون أمور الناس ، فالرئيس الكبير فى نظره هو صاحب الخلق الكبير ، الرئيس الكبير هو الرئيس المتجرد ، وقد ذكر رؤساء لم يكونوا من أصحاب الذهن والعقل ، ولكنهم كانوا لا يشك أحد فى نزاهتهم ، فقد تخلى بعضهم للدولة عن قسم من ماله ، وكان بعضهم لا يرضى بأن يسخر أحداً من الموظفين فى وزارته فى شغله الخاص ، فكل قوتهم صادرة عن هذه الفضيلة الابتدائية ، وهى النزاهة .

فنحن نرى أن المؤلفين لا يبحثون عن السياسة إلا بحثوا عن الأخلاق وعن علم النفس ؛ فالسياسة أخت علم النفس وأخت الأخلاق ، على خلاف ما هو شائع من أن السياسة لا خلق لها ، فإن السياسة التى لا خلق لها إنما هى سياسة لا تلبث أن تتلاشى

كما يتلاشى الدخان فى الفضاء ، وما نجحت سياسة بعض رجال العرب فى الماضى ، مثل الذين أثبت على ذكرهم ، إلا لأن أصحابها كانوا على خلق عظيم ، وكانوا زيادة على ذلك عالمين بأسرار النفوس واقفين على حقائق الطبائع ، مطلعين على خفايا الأمزجة .

فإذا تجرد رجال السياسة من الأخلاق ومن معرفة نفوس الناس ضاعت سياستهم وضاع الناس وضاعت البلاد فى وقت واحد !